شرح حديث «صَلصَلة الجَرَس»

من حاشية

الخَيرُ الجَارِي في شَرحِ صَحيحِ البُخَارِي

للعلامة الشيخ

أبي يوسف محمد يعقوب البَنْبَاني اللاهُوري ثم الدِّهلوي

المتوفىٰ سنة 1098 هـ

نَسَخه من المخطوط

المفتي الفاضل

مبشر عبد الرحيم سورتي

ضَبَط نصَّه وأعدَّه للنشر

العبد الضعيف

محمد طلحة بلال أحمد منيار

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ الله عَنْهَا ، أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ الله عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ» .

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا .

قوله : « حدثنا عبد الله بن يوسف » : الأشهرُ بضم السين، ونُقِل فتحها وكسرها أيضا. ومعناه بالعِبرانية: جميلٌ ، فلُقّب .

أنا مالك : هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبَحي المدني الإمامُ المعروف المشهور، مات سنة تسع وسبعين ومئة من الهجرة بالمدينة ، ودُفن بالبقيع.

قال القَسطلّاني: هو إمام دار الهجرة ؛ بل إمام الأئمة. وهذا بظاهرِه مخالفٌ لِمَا ذكره إمامُه – أعني الشافعيَّ رحمه الله – حيث قال: الفقهاءُ كلُّهم عِيَال على أبي حنيفة رحمه الله.

« عن هِشَام » : بكسر الهاء وبالشين المعجمة المخفَّفة ، تابعي.

« عُروَة » : بضم المهملة ، التابعي الجليل المجمَع على جلالته وأمانته وكثرةِ علمه.

« عن أبيه » : هو عُروة بن الزبير بن العَوّام بن الخُويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَي القرشي. والزبير أحد العَشَرة المبشَّرة.

نُقل عنه أنه اجتمع هو وأخوه عبدُ الله وعبدُ الملك في الحرم يوما ، وتمنَّى كلُّ واحد منهم ما يَرضاه ، فتمنَّى أخوه رئاسةَ الحرمين مكةَ والمدينةَ شرَّفهما الله تعالى ، وتمنَّى عبدُ الملك الإمارةَ العامَّة ، وتمنَّى هو العلمَ والعملَ ، فنال كلُّ واحد منهم ما يَرضاه.

قوله: « عن عائشة » : بالهمزة ، وعَوامُّ المحدِّثين يقولونه بياء صريحة . في «القاموس» : وعائشةُ : عَلَمٌ للرجالِ وللنساءِ منهم : ابنُ نُمَيْرِ بنِ واقِفٍ ، وله بئرُ عائشةَ بقُرْبِ المدينةِ ، وابنُ عَثْمٍ ، ومنه المَثَلُ : "أَضْبَطُ من عائشةَ". انتهى.

قوله: « أم المؤمنين » : هذا مُقتَبَس من قوله تعالى : ﴿ وأزواجُهُ أُمَّهَاتُهُم ﴾.

قوله: « كيفَ يأتيك الوحيُ » : في «القاموس» : الوَحيُ : الإشارةُ والكتابةُ والمكتوبُ والرسالةُ والإلهامُ والكلامُ الخَفِيُّ وكلُّ ما ألقَيتَه ... إلى غير ذلك . والصوتُ يكونُ في الناس وغيرهم.

قوله: « أحيانا » : جمع حِينٍ بمعنى الوقت مطلقا ، قليلا أو كثيرا .

قوله: « مِثلَ » : منصوبٌ على الحالية ، أي : ما يأتيني الوحيُ مُشَابِها بصوت الصَّلصلة.

قوله: « صَلصَلة » : بفتح الصادين المهمَلتين : صوتُ كل مُصَوِّت أو الصوت المتدارَك.

وإنما أتاهُ كذلك ليستقرَّ في فهمه المطهَّر، وكان شديداً عليه.

وفيه دليل على أنه لا يلزَم في التشبيه المشابهةُ من كل وجهٍ ، بل يكفي المشابهةُ فيما يفيد المقصودَ ، أعني بيانَ قُوَّته واستمرارَه ههنا ، وإلا لما صَحَّ تشبيهُ صوت المَلَك بالجَرَس .

وقيل: الحكمة في ذلك أنْ لَّا يبقى مكانٌ لغير صوتِ المَلَك في سَمْعه ولا في قَلبه عليه الصلاة والسلام . وهذا قريبٌ مما قال بعضُ العلماء في بيانه : إنه إشارةٌ إلى السَّماع الحاصل من وراء الحِجاب ، ولذا قال : « هو أشدُّه عليَّ » ؛ فإنه لا يتحصَّل ذلك إلا لمن انسدَّت له موادُّ الوَسْواس ورَكَدت له أسبابُ الحواسِّ وحَصَل له الإقبالُ بالكُلِّية على الله تعالى ؛ لأن الحواسَّ معزولةٌ عن مُطَالعة عالَمَ الملكُوت.

وقيل: إن المَلَك كان ينزِلُ كذلك إذا نَزَل بآية وعيدٍ وتهديدٍ ، فيكون هذا وجهَ كونه أشدَّ . ولأن صوتَ الصلصلة أبعَدُ من الكثرة التي تكون في الحروف ، وأقربُ إلى الوَحدة الموجودة في الصوت ، فأخْذُهُ محتاجٌ إلى زيادة تجريدٍ وخُروجٍ عن أُفُق الطبيعة إلى أفق الرَّوحانية . وهذا قريبٌ مما ذكره البعضُ : بأن سُنَّة الله جَرَت بأنه لا بد من المناسبة بين المفيدِ والمستفيدِ ، فتلك إمَّا باتصال السامع بالمتكلم بأن اتصَفَ السامعُ بنَظِير صفات المتكلم أو بالعكس . والنوع الأولُ يكون بغَلَبة الرَّوحانية فكان أشدَّ من النوع الثاني . والله أعلم بالصواب .

قوله: « فيَفصِمُ » : فيه ثلاث روايات : أرجحُها فتح الياء وكسر الصاد المهملة ، ويُروى بضم الياء وفتح الصاد من الفَصْمِ بمعنى القَطْع ، وبضم الياء وكسر الصاد من: أفصَمَ المطرُ : إذا أقلَع.

والضمير إلى الوَحي ، والجملة بعده حال من ضميره ، أي: يفارِقُني.

« وقد وَعَيتُ » : أي: حفظتُ عنه ، ولا يمنعني الشدةُ عن حفظ ما ألقَى وأخذِ ما أوحَى .

ويحتمل على بناء المفعول أن يكون قوله : « عَنّي » مفعول ما لم يسمَّ فاعلُه ، ويكون بيانا للشدة ، أي : هو أشدُّ بحيث ينقطعُ من بدني شيء .

قوله: « وقد وَعَيتُ عنه » : الضمير إما راجعٌ إلى المصوِّت أو إلى الصَّوت ، أي: حفظتُ.

قوله: « وأحيانا » : معطوف على قوله : « أحيانا » الأول.

قوله: « يَتمَثَّل » : أي: يتصوَّر . مشتقّ من المثال ، وصيغة التفعُّل تدل على التكلُّف ، وأن تلك الصورة ليستْ بأصلية . قال المتكلمون : الملائكة أجسام لَطِيفة عُلوية يتشكَّلون بأيِّ شكل يريدون ، ولا استبعادَ في أن الله تعالى يجعلُهم قادِرِين على أن يُرُوا إراءةَ ما يشاءون من الأشكال ، ومن استبعَدَ ذلك فقد أبعد عن الصواب. وكذا مَن قال : بأنه يُزَال عن جبرئيل عليه السلام أجزاءُ أو يفنَي عنه ذلك ؛ بل الأولى والأحوط أن يفوَّض كيفيته إلى الله تعالى .

قال في «الفتح» : والحق أن تمثُّلَ الملائكة ليس معناه أن ذاتَه انقلبَ رجُلا ؛ بل معناه أنه ظَهَر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه ، والظاهر أن القَدر الزائد لا يزول ولا يفنَي ، بل يخفَى على الرائي . والله أعلم. انتهى

قوله: « رجلا » : إما منصوبٌ على الحالية لإفادته المعنَى بلا تأويل ، وإما على أنه تميزٌ عن النسبة ، والتحويلُ إلى الفاعل والمفعول أكثريٌّ لا كلي كما في : امتلأ الإناءُ ماءً ، وبابُ التأويل مفتوح . ويحتمل أن يكون مفعولا به إن ضَمَّنتَ "يتمثَّل" معنى يتخذ ، أي : يتخذ الملك رجُلا مثالا.

قوله: « فيكلِّمني ، فأعِي » : أي: فأحفظ . وذَكَر صيغةَ المضارع ههنا والماضيَ فيما قبل ؛ لأن الحفظَ في حالة التكلُّم وفيما سَبَق قبل الفَصْم – أي : المفارَقة – لا بعدَها ومعها.

ثم اعلم أنه كما يُفهَم من هذا الوجه من الوحي حالُ حامِلِ الوحي ، كذلك يُفهَم منه كيفيةُ نفس الوحي . وأيضا كما يُفهَم حالُ جِنْس الوحي ، كذلك يُفهَم حالُ مَبْدإه ، إذ هو داخلٌ في جِنسه ، فلا إشكالَ في توافُق الحديث للترجمة ، على أن أمرَ الترجمة ليس مَبناهُ على التوافُق التامّ ، بل التناسبُ العامُّ الذي يحصُل بنوع مَّا ، مع أن الترجمة قد تكون شارحةً للحديث حيثُ يَظهرُ من الترجمة ما هو المرادُ من الحديث ، وبهذا الأصل ينحلُّ كثيرٌ من الإشكالات ، وقد غَفَل عنه كثيرٌ من مَهَرة هذا الفن.

ثم اعلم أن المراد من المَلَك : "جبرئيل عليه السلام" كما في القَسطلاني والدَّماميني ، فإنه رسولٌ بين الله وبين رُسُله . وقد نَزَل عليه إسرافيلُ أوَّلا كما سيأتي . وهو من الأَلُوكة بمعنى الرسالة ، أو من "لاك" ، وتفصيله في محله.